

ذات يوم، تخصيصهما والتركيز عليهما، أو الاهتمام بهما، في سياق الهم الفلسطيني العام.

١ - انعطافات المشروع الوطني الفلسطيني

نحن نعتقد بأنه اذا كانت سنة ١٩٦٤ وتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، كتعبير وتطلع للشعب الفلسطيني لتحقيق مشروعه الاستقلالي واقامة كيانه الوطني، تشكل انعطافاً رئيساً في مسار الحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة، مما جعل الباحثين ورئيس التحرير يخصصون فصلاً خاصاً لمتابعة، ودرس، وتدقيق، هذا النشوء، والبحث في خلفيته ومعطياته والمحيط الاقليمي والدولي الذي أثر في اعلانه. اذا كان ذلك صحيحاً - وهو كذلك بالفعل، وباعتبار هذا الفصل بالذات ذا أهمية استثنائية، لأنه قام بتفصيل مرحلة ذات أهمية استثنائية هي مرحلة التأسيس - فان مسار الحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة قد شهد انعطافة أخرى ذات أهمية استثنائية كذلك، يمكن أن نطلق عليها انعطافة التبلور والنضج، والتي تمثلت في قدرة الفلسطينيين على انتاج وتسويغ برنامجهم السياسي الواقعي، وذلك للمرة الاولى في تاريخ الصراع العربي - الاسرائيلي، وهو التبلور المتمثل في البرنامج المرحلي (برنامج النقاط العشر) لمنظمة التحرير الفلسطينية الذي قامت الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني (القاهرة ١ حزيران (يونيو) ١٩٧٤) بالاعلان عنه وتقديمه إلى العالم كحل وسط للصراع.

وهنا نقول انه كان الاجدى أن يخصص فريق العمل فصلاً خاصاً لهذه المرحلة، يقدم فيها الفريق، كما فعل في القسم الاول كله من الكتاب (سبع فصول) تشرحاً تفصيلاً لطبيعة الوضع الفلسطيني، كما الوضع المحيط الذي سمح بانتاج مثل هذا البرنامج الاستثنائي الذي كان بحاجة إلى عشر سنوات متواصلة (١٩٦٤ - ١٩٧٤) من العمل الصعب لبلورته وولادته. كان الاجدى الاحاطة بعناصر الطرفين، الموضوعي والذاتي، المنتجين للبرنامج، بحيث يؤدي ذلك إلى فهم أكثر وضوحاً لطروحات البرنامج، وفهم أكثر وضوحاً لأهليتها للتحقق.

لكن د. سرحان - كاتب هذا الفصل - اختار ان يمرّ عرضاً بهذا البرنامج، في سياق سرده لقرارات المجالس الوطنية الفلسطينية المتتالية، فلم يحز البرنامج المرحلي الا على صفحة واحدة من الفصل المخصص للعمل على الساحة الفلسطينية في تلك المرحلة. ولا نريد، هنا، البحث في النوايا، كما لا نريد الاتهام بأنه قد تم اسقاط الذات على الواقع، أو تضخيم الذات لتحل محل الواقع، مع ان اتهاماً من هذا النوع قد لا يحمل مغالاة أو شططاً، بل قد يجمع ما بين الباحث ورئيس تحرير البحث؛ لكن الامر الملموس ان الكتاب، بمجمله، قد تجاهل حدثاً أقل ما يقال فيه انه الاساس والمصدر لما يقرب من خمسة عشر عاماً من الجهد الفلسطيني الحديث وبالغ القسوة لتأكيد الذات وبنائها وبلورة وعي سياسي محدد لها، من خلال تمسكها بمشروع محدد البنود والزوايا، يحاول ان يكون مجرداً من طغيان ذاته ومصالحه الخاصة تجاه قضية الصراع حول مستقبل فلسطين بين المستوطنين والمواطنين.

مثل هذا النضج الفلسطيني الخلاق الذي شكل نسج الحياة والاستمرار لدى زمني طويل، والذي حمى الكيانية الفلسطينية من سعي الموت المطلق؛ هذا كله يتم تجاهله، ويتم القفز عنه، وفي ذلك نقیصة كبرى. وأمر كهذا ليس تقنياً كما يمكن أن يقال؛ اذ نعتقد بأن ضرورات هذا المشروع بالذات - مشروع التاريخ للكيانبة الفلسطينية المعاصرة - كانت تحتم افراد فصل خاص، أو قسم خاص، لمرحلة التبلور الفلسطيني، ومرحلة انفصال الوعي الفلسطيني عن حالات التغني بالبرتيال الحزين، ثم عن حالات الاتباع للفكرة - الوهم التي سوف تشكل الخلاص الفلسطيني على يد السيف العربي القادم لتحرير القدس.

ان هذه النقطة بذاتها تشكل اختراقاً عظيماً لعشرات السنين من طغيان المحيط وانكفاء هدف الاستقلال وتجسده. وهذه اللحظة بالذات، لحظة تبلور البرنامج المرحلي، فالسلطة الوطنية الفلسطينية، فالدولة الفلسطينية في الاراضي التي يتم تحريرها، فالدولة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، مثل هذا التبلور المتنامي الذي قد يجده البعض تناقضاً وتنازلاً، هي، في تقديرنا، أرقى حالات الواقعية الفلسطينية، واقعية تملك ضفافها، واقعية تجتهد لترسم وتبين موقعها على خارطة سياسية تعصف بها الرياح من كل صوب.